ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 25 سبتمبر 2019

تأمّلات في الفلسفة الهتلرية

إيمانويل ليفيناس
ترجمة: رشيد مرون

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

ملخص بقلم المترجم:

وردت المقالة التالية في مطلع كتاب "اللامتوقع في التاريخ"[1] الذي ضم مجموعة من نصوص وتدخلات الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس (1906 - 1995)، وهي النصوص والتدخلات التي يجمع بينها، كما يوحي بذلك العنوان، التعليق على مجريات أحداث الساحة السياسية والفكرية في القرن العشرين، وتقديم تحليل ظاهراتي لبعض من هذه الأحداث الفارقة.

يكتسي النص المترجم أهميته وراهنيته من تحليل مفهوم العنصرية بردها إلى أصلها البعيد في الثقافة الغربية: إشكالية العلاقة بين الروح والجسد، إذ يستعرض تطور هذه العلاقة التي بدأت مع المثالية، والتي تقوم على أسبقية الروح على الجسد، وتفهم هذا الأخير كعائق يجب تجاوزه قبل أن تأتي الفلسفة المادية منذ عصر الأنوار، وتنادي بفكرة تطابق المادة مع الروح غير أنها احتفظت بدورها بنوع من تنزيه العقل عن الواقع الملموس، وصولاً إلى فلسفة إرادة القوة والفهم المتطرف لها من طرف النازية العنصرية التي تنفي الروح، وتعتبر الجسد محور العقل الوحيد وتجسيده الأمثل. لذا، فهي تبرّر فكرة كون الروابط الوحيدة الممكنة والموثوقة بين البشر هي الروابط الجسدية: رابطة الدم والعرق. وترى في كل رابطة قائمة على توافق العقليات والإرادات علاقة مشبوهة. أن العودة العنيفة للجسد، المطرود سابقاً من حضرة الروح، هو ما سيؤدي لفكرة بناء نموذج اجتماعي مبني على القوة. كما سيؤدي لابتكار نمط انتشار للقوة يختلف تماماً عن نمط انتشار الفكرة أو الأيديولوجيا؛ فنمو الجسد لا يتم إلا بالسيطرة على باقي الأجساد، في حين تنمو الأفكار بتقاسمها مع الآخرين، الشيء الذي يخلق نظراء متساوين يربطهم التقارب العقلي. هكذا تتضح معالم الأسس العميقة لفكرة العنصرية التي تطورت من المقابلة الفلسفية بين الروح والجسد، لترفع هذا الأخير إلى صف المثال، ويصبح هو أساس الفكرة العرقية المرتكزة على رابطة الدم لا الاشتراك في قناعات معينة.

1 Emmanuel Levinas, Les imprévus de l'Histoire, Fata Morgana Editions, Paris, 1994, p 27-41

تأمّلات في الفلسفة الهتلرية

إن فلسفة هتلر فلسفة بسيطة بطبيعتها، غير أن القوى البدائية التي تحركها لا تلبث أن تدمر نسق إنتاج خطابها البئيس تحت تأثير بزوغ قوة أوّلية مسيطرة. توقظ هذه القوى مرة أخرى حنيناً سرّياً كامناً في الرّوح الألمانية. إن النزعة الهتلرية هي أكثر من جنون أو عدوى، إنها استيقاظ للمشاعر البدائية الأوّلية.

لكن هذا الاستيقاظ الخطير إلى درجة مروعة يصبح أيضاً موضوعاً مهمّاً للتأمل والدرس الفلسفي، لأن المشاعر الأولية تعبّر عن فلسفة معينة. إنها تعبّر عن رد الفعل الأول لذات ما تجاه مجمل الواقع وتجاه مسارها وقدرها. تعبّر هذه المشاعر عن معنى المغامرة التي ستخوضها الروح في العالم.

بهذا المعنى، تتجاوز الفلسفة الهتلرية نطاق فلسفة أتباع هتلر، لأنها تسائل الأسس والأركان الأساسية لحضارة بأكملها. فالنزاع لا يدور فقط بين الليبرالية والهتلرية، بل إن المسيحية بأكملها تصبح مهددة، رغم التوافقات البابوية التي استفادت منها الكنائس المسيحية إثر إقامة النظام النازي.

غير أنه لا يمكننا أن نكتفي بالتمييز، الذي درجت عليه بعض التحاليل الصحفية، بين كونية قيم الكنيسة وخصوصية القيم العنصرية؛ ذلك أن التناقض المنطقي لا يكفي لإصدار حكم على حدث واقعي. إن الدلالة العميقة للتناقض المنطقي لا يمكن أن تفهم تماماً بغير الرجوع إلى مصدرها الأول، إلى الحدس والقرار الأصلي الذي جعل هذا التناقض ممكنا.

1

مجرد ممارسة الحريات السياسية لا يستنفذ تماماً مضمون روح الحرية التي تشكّل، بالنسبة إلى الحضارة الأوروبية، تصوراً حول مسار الإنسان وقدره في الوجود؛ فروح الحرية تعادل هنا إحساسا بالحرية المطلقة للإنسان قبالة العالم وإمكانيات فعله في هذا العالم. فالإنسان يتجدّد باستمرار قبالة الكون. وإذا أردنا الحديث عن ذلك بشكل مطلق يمكن أن نقول: ليس للإنسان تاريخ، لأن التاريخ يرسم الحدود الأساسية الأعمق أمام حريته. فالزمن الذي هو شرط وجود الإنسان، هو أيضاً سبب وجود ما لا يمكن تعويضه ولا تداركه. فالحدث المتحقّق في الواقع، الذي يتصرّم مع الماضي، يفلت بذلك إلى غير ما رجعة من سيطرة الإنسان عليه، غير أنه يظل مستمرّاً في التأثير على مستقبله وعلى قدره. وخلف الحزن الذي يعترينا إزاء انسياب نهر الزمن، خلف الطابع الوهمي للحظة الحاضرة التي يحياها هيراقليطس، تكمن تراجيديا الماضي الذي لا يمكن تغييره ولا تعديل تراتبية أحداثه ولا محوها، وهو يحكم علينا بذلك بأن تصير

كل مبادرة مجرد مساهمة أو استمرار تابع لما سبق. إن الحرية الحقيقية والبدء الحقيقي يفرضان توفّر إمكانية العيش في حاضر حقيقي يتموقع في قمة مسار أو ذروة قدر ما، ويعيد إنشاء نفسه إلى الأبد.

جاءت اليهودية بهذه الرسالة الرائعة: الشعور بالذنب، باعتباره تعبيراً عن العجز المطلق عن إصلاح ما لا يتدارك، يعلن التوبة التي تؤدي إلى الغفران الذي يصلح ما انخرم. يجد الإنسان في حاضره ما يعدّل به مسار الماضي، ما يمحو به هذا الماضي. بذلك، يفقد الماضي طابعه الأساسي: الانصرام إلى غير ما رجعة ولا عودة. ونفس هذا الماضي ينكفئ على نفسه متوترا كحيوان جريح ليجثو أمام الإنسان، ليحرّره.

إن الإحساس الطبيعي بالعجز إزاء الزمن هو ما يشكل أساس الشعور التراجيدي بالانسحاق لدى الإغريق وكنه الإحساس بالخطيئة وعظمة الانتفاضة المسيحية. في مواجهة أسطورة أفراد شعب "الأتريد" المنسحقين تحت لعنة ماضي غريب وعنيف مثل لعنة أبدية في سياق الموروث الإغريقي، تقترح المسيحية دراما مأساة صوفية، فالصليب يحرّر والعبادات الكنسية اليومية تمكّن من الانتصار على الزمن وتجعل محاولة الفكاك منه ممارسة يومية. إن الخلاص الذي تبشّر به المسيحية يستمد قيمته من الوعد بإمكانية تعديل ما أصبح نهائياً وغير قابل للمراجعة بسبب مرور اللحظات وتواليها، يستمد هذا الخلاص قيمته من الوعد بتجاوز التناقض المطلق الذي يجسده الماضي التابع للحاضر، الماضي القابل للمساءلة وللمراجعة باستمرار.

انطلاقاً من هذه النقطة، تنادي المسيحية بالحرية وتجعلها ممكنة في كل مداها. لا يمكننا فقط أن نختار مسار قدرنا الحالي بحرية، بل إن اختياراتنا السابقة تكفّ، هي نفسها، عن أن تكون قيوداً في أرجلنا. هكذا يحتفظ الإنسان بإمكانية فسخ العقد السابق الذي التزم به بكامل إرادته. حتى ولو بدت هذه الإمكانية خارقة، فإنها تصبح ملموسة. يصبح بإمكانه أن يستعيد في أي وقت عري الأيام الأولى التي أعقبت ولادته. إن استعادة هذه اللحظات تتطلب مجهوداً صعباً ويمكن الفشل فيها، كما أنها غير ناتجة عن مجرد رغبة مزاجية في عالم اعتباطي. غير أن قوة وعمق المجهود المطلوب يشير إلى فرادة وخصوصية الحالة الجديدة الموعودة، والتي يمكن أن تتحقق وتنتصر ممزّقة تراكم الطبقات العميقة للوجود الطبيعي.

إن هذه الحرية اللامتناهية تجاه كل ارتباط، التي لا يوجد أي ارتباط بالنسبة إليها، تشكل في العمق أساس المفهوم المسيحي للروح. هذه الروح التي تظل الواقع الملموس الأسمى المعبّر عن عمق هوية الفرد، مع توفرها في نفس الوقت على قبس من نقاء متعالي. عبر تقلبات أحوال التاريخ والعالم، تعطي القدرة على

التجدّد للروح طبيعة حدسية، طبيعة منزّهة عن التأثر بما يجري في العالم المحسوس الذي يسكنه الإنسان الواقعي. والتناقض هنا لا يمس إلّا ظاهر الأمور. فسموّ الروح عن المحسوسات ليس انفصالاً عنها، بل قدرة واقعية وإيجابية على الترفّع عليها. لذا لا ينبع الإحساس بالكرامة الموجود في روح كل إنسان، بغض النظر عن الموقع الاجتماعي والثروة المادية للشخص، من نظرية تفيد بوجود تشابه في "البنية النفسية"، رغم الاختلافات الفردية بين الأشخاص، بل من قدرة الروح على التحرّر من كل ما سبق وكان، من كل قيد أو ارتباط سابق لها لتعاود الرجوع إلى عذريتها الأولى.

إذا كانت الليبرالية أخفت خلال القرون الأخيرة الطابع الدراماتيكي لهذا التحرر، فإنها حافظت على أحد عناصره الأساسية الممثلة في الحرية السيادية للعقل. فكل التيارات الفلسفية والسياسية الحديثة تجمع على وضع العقل الإنساني على مستوى أعلى من الواقع، وتحفر هوة كبيرة بين الإنسان والعالم، تجعل تطبيق تقسيمات العالم الفيزيائي على روحانية العقل شيئاً مستحيلاً. إنها تضع عصارة الروح في مستوى يوجد خارج العالم الواقعي وتاريخ الوجود المحسوس. إنها تستبدل العالم الفقير الأعمى للتفكير العادي بالعالم الذي تمت إعادة بنائه بواسطة الفلسفة المثالية، بالعالم العائم في العقل والخاضع له. عوضاً عن التحرر بواسطة الاحسان الإلهي، هناك التحرر الذاتي، لكن المفهوم اليهودي – المسيحي للحرية يلقي بظلال تأثيراته على هذا التحرر الذاتي.

وقد عبّر الكتاب الفرنسيون في القرن 18، الذين بشروا بالأيديولوجية الديمقراطية وبالإعلان العالمي لحقوق الانسان، رغم انتمائهم إلى الفلسفة المادية، عن الحاجة إلى عقل مطهّر (بنصب الهاء) من المادة الفيزيائية والنفسية والاجتماعية. إذا كان نور العقل كافياً لطرد أشباح الفكر اللاعقلاني، فماذا يتبقى من المادية إذا كانت المادة متداخلة مع العقل؟

إن إنسان المجتمع الليبرالي لا يختار قدره تحت ضغط الإرث الثقيل للتاريخ، فهو لا يعترف باحتمالات التاريخ كقوى قلقة تفور داخله وتقوده نحو طريق حتمية مسطّرة له سلفاً. إن هذه الاحتمالات لا تشكل بالنسبة إليه إلا ممكنات منطقية تحت تصرف العقل الهادئ الحر في اختياراته المحافظ على مسافة منها.

2

كانت الماركسية أول من رفض هذا التوجه العام في تاريخ الغرب؛ فهي لم تنظر إلى الروح الإنسانية كحرية مطلقة، كروح تحلق عالياً فوق كل ارتباط، ولم تتصورها كعقل خالص ينتمي إلى وجود غائي، بل اعتبرت هذه الروح استجابة لحاجيات مادية، خاضعة للمادة وللمجتمع اللذين لا يأتمران بأوامر العصا

السحرية للعقل. إن الوجود الملموس والمأثّر للروح أكثر أهمية من وجود العقل العاجز. والصراع السابق على وجود الإدراك يفرض عليه قرارات لم يتخذها الإدراك. "الوجود يحدد الوعي". العلم والأخلاق والذائقة الجمالية ليس لها وجود مستقل عن محيطها بل هي تعبّر، في كل وقت وحين، عن الصراع الأساسي بين الحضارات البورجوازية والبروليتارية.

هكذا يفقد التصور التقليدي قدرته السابقة على التحرر قيود المادة، التي كانت على الدوام مصدر فخره، يصطدم بجبال لا يمكن زحزحتها بالإيمان مهما بلغت قوته. بذلك تمت ازاحة الحرية المطلقة التي تجترح المعجزات لأول مرة من تكوين العقل. بهذا تكون الماركسية قد دخلت في تناقض لا مع المسيحية وحدها، بل مع كل الليبرالية المثالية التي تعتبر أن "الوجود لا يحدد الوعي"، بل إن الوعي هو الذي يحدد الوجود.

وفي هذه النقطة، تتبنى الماركسية طرحاً يناقض كل الموروث الثقافي الأوروبي، أو يكسر، على الأقل، انسجام مسار تطوره.

3

على الرغم من ذلك، فإن هذه القطيعة مع الليبرالية ليست نهائية. فالماركسية لديها وعي قوي بكونها استمرارا لتقاليد سنة 1789 والثورة الفرنسية، ويبدو أن مركزية الدولة اليعقوبية كانت مصدر إلهام مؤثّر بالنسبة إلى الثورات الماركسية. لكن إذا كان الحدس الأساس للماركسية يواصل النظر إلى الروح في علاقة لا مفر منها مع وضعية معينة، فإن هذا التطور لا يمثل تطوراً فكرياً جذرياً. فالوعي الفردي المحدد بالوجود ليس عاجزاً إلى درجة عدم القدرة على زعزعة الجاذبية الاجتماعية، التي تبدو منذ هذه اللحظة كما لو كانت غريبة عن جوهره. إن الوعي بالوضع الاجتماعي يعني بالنسبة إلى الفرد، حسب ماركس، التحرر من الحتمية والقدرية التي يتضمنها هذا الوضع.

إن إنتاج تصور مناقض للتصور الأوروبي عن الإنسان لا يتأتّى إلا بشرط اعتبار وضعيته المتحكّمة فيه لا تنضاف إليه، بل تشكّل عمق وكنه وجوده، وهو الشرط المليء بالمفارقات الذي يتحقق في تجربة الجسد.

فما هو التأويل التقليدي لتوفر الإنسان على جسد؟ إنه تحمّل هذا الجسد كما لو كان جزءاً من العالم الخارجي المنفصل عنا. فها هو يثقل على سقراط ويبدو له مماثلاً للأغلال التي تطوّق رجليه في سجنه، أن هذا الجسد يكبّله تماماً كما القبر الذي ينتظره. الجسد هو العائق والحاجز. إنه يعرقل انطلاق الروح

وتحرّرها، ويكبل الفرد داخل شروط حياته الأرضية. لكن بما أن الأمر يتعلق بحاجز، فإن المهمة المنتظرة والمتوقعة هي تجاوزه.

إن هذا الشعور المستمر بكون جسد الإنسان غريباً عنه هو ما غذّى المسيحية دوما كما غذّى الليبرالية المعاصرة. إنه التصور الذي واصل التأثير في كل تنويعات الأخلاق، رغم الانهيار الذي عانى منه نموذج حياة الزهّاد منذ عصر النهضة الأوروبية. إذا كان الماديون قد خلطوا بين الأنا والجسد، فإن ذلك تمّ مقابل إنكار شامل ومطلق لوجود الروح. لقد وضعوا الجسد في سياق الطبيعة ونزعوا عن الإنسان أية وضعية استثنائية في الكون.

غير أن الجسد ليس فقط هذا المكوّن الغريب عنا دوما. إن التصور الكلاسيكي يبخس من قيمة شعور بالتطابق بيننا وبين أجسادنا، الذي يكون قوياً وحاداً في بعض الظروف، إذ يعتبر التصور الكلاسيكي هذا الشعور بالتطابق مجرد مرحلة علينا أن نتجاوزها. لكن المشكلة هو أن الجسد أقرب إلينا وأكثر ألفة من كل العالم الخارجي. إنه لا يتحكم فقط في حياتنا النفسية ومزاجنا وانشطتنا، بل يوجد لدينا، إضافة إلى هذه الاعتبارات العادية التي تسهل ملاحظتها، إحساس بالتطابق بيننا وبينه. ألا نشعر بوجودنا داخل دفئه الفريد قبل أن يبزغ هذا الأنا الذي يدّعي النأي عنه والقدرة على التميّز عليه؟ ألا تصمد أمام كل المحن هاته الروابط التي يرسيها الدم قبل بزوغ الإدراك؟ خلال ممارسة الرياضات الصعبة المتضمنة لتمارين خطيرة تبلغ فيها الحركات دقة وكمالا تجريديا تحت ضغط خطر الموت المتربص، يجب أن تختفي تماما كل مسافة بين الأنا والجسد. وفي لحظات الألم الجسدي الكبير، ألا يشعر المريض بوحدة كيانه، وهو يتقلب على فراش المرض ناشدا وضعية تخفف من آلامه الحادة؟

هل سيقول قائل مثلاً إن تحليل الألم يوضح اعتراض الروح على المعاناة الجسدية وسعيها للخلاص منها ورفضها البقاء فيها، وهو ما قد يعتبر محاولة لتجاوز الجسد؟ ألا تعلم الروح أن هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل وباليأس؟ ألا تبقى الروح المتمردة حبيسة الألم دون أن تجد منه مهربا؟ أليس هذا الشعور باليأس هو ما يشكّل الكنه الحقيقي للألم؟

إلى جانب التفسير الذي يعطيه الفكر الغربي التقليدي لهذه الوقائع المرتبطة بالجسد التي يعتبرها عنيفة وسوقية ويعرف كيف يخفيها، يحدث أن يطفو الإحساس بكونها تمتلك فرادة أصيلة يتعيّن العمل على الحفاظ على نقائها. هناك إذن احتمال أن يعبّر الألم الجسدي عن موقف مطلق.

فالجسد ليس مجرد حادث سعيد أو تعيس يضعنا في علاقة مع عالم المادة القاسي، فالتصاقه بالأنا يستمد قيمته من عين هذا الالتصاق. إنه التصاق لا يمكن الفرار منه ولا يمكن لأية استعارة أن تشبّه وجوده بوجود شيء خارج عن الذات. إن علاقتنا به هي علاقة لقاء وتوحّد لا يمكن لأية قوة أن تنزع عنها طابعها التراجيدي النهائي.

إن هذا الشعور بالتطابق الهوياتي بين الأنا والجسد، المختلف تماماً عن المادية الشعبية، لن يسمح أبداً، للذين يريدون التحرر من الجسد، بمغادرته ليصلوا إلى هذه الازدواجية المشكّلة من روح حرة تنشد الخلاص ومن جسد زعم البعض أن الروح مكرهة على تحمل أغلاله. العكس هو الصحيح: بالنسبة إليهم، فهذا الترابط مع الجسد هو ما يشكّل كينونة وجوهر الروح. لذا، ففصل الروح عن الأشكال الملموسة التي أصبحت تسكنها سيكون بمثابة خيانة لخصوصية وأصالة الإحساس الذي يجب أن تنطلق منه.

إن الأهمية التي يكتسيها الإحساس بالجسد، الأهمية التي لم يقتنع الفكر الغربي أبداً بها، قد أفسحت المجال لبزوغ تصور جديد للإنسان. أصبح المعطى البيولوجي، بكل ما يتضمن من حتمية، أكثر من مجرد "أداة" ووسيلة للحياة الروحية بل صار هو موضوعها الأساس. إن نداء الدم والوراثة والماضي، التي يتم نقلها إلينا عبر الجسد، تفقد وضعيتها كمشاكل يمكن إيجاد حلول لها بواسطة أنا حرة متحررة. فالأنا لا تقدم حلولا لهذه الإشكاليات إلا الأسئلة نفسها المتضمنة في هذه الإشكالات، لأن هذه الأسئلة هي ما يشكل الأنا. إن جوهر الإنسان لا يكمن في الحرية، بل في مجموعة الارتباطات المتوالية. أن يكون الإنسان إنساناً حقيقيا لا يعني أن يحلّق فوق الأعراض الغريبة دوماً عن حرية الأنا، بل أن يلتصق بها، أن يصبح واعيا بالارتباط الأوّلي الضروري الخاص مع جسده، وقبول هذا الارتباط المتفرّد به.

لذا تصبح كل بنية اجتماعية تدّعي التحرر من الجسد ولا تدخله في معادلاتها مثيرة للريبة والشبهة، كما لو كانت نوعا من الكذب والخيانة. تصبح أشكال المجتمعات المعاصرة المبنية على توافق الإرادات الحرة ليس فقط هشة ورخوة، بل مزيفة وكاذبة. أن تقارب العقول يفقد بعض الناس الإحساس بعظمة انتصار الروح على الجسد، ويصبح بمثابة عملية تزوير كبرى. يصبح المجتمع المبني على وحدة الدم هو التعبير عن العقل الملموس! ووفق هذه الرؤية لو لم توجد الأعراق، لابتكرناها!

يرافق هذا المثال للإنسان والمجتمع تصور جديد للفكر وللحقيقة.

أوضحنا سابقاً أن ما يميز بنية الفكر والحقيقة في الغرب هو المسافة الأولية الموجودة بين الإنسان وعالم الأفكار الذي يختار منه الحقائق المناسبة له. إنه حرّ ووحيد قبالة هذا العالم. إنه حر إلى درجة تمكّنه

أيضا من العزوف عن قطع المسافة نحو عالم الأفكار والاكتفاء بعدم الاختيار، فتيار الشك تيار أساسي في التقاليد الفكرية الغربية. وحتى بعد قطع المسافة واختيار حقيقة معينة، فإن الإنسان يحافظ على حريته، لأن بإمكانه التراجع عن اختيار ما. فكل اختيار يتضمن، منذ البداية، إمكانية النفي والإلغاء مستقبلا. في هذه الحرية تكمن كل كرامة الفكر، ولكنها تخفي أيضاً خطراً كبيراً. فإلى داخل المسافة بين الإنسان والفكرة يمكن أن يتسرب الكذب.

يصبح الفكر لعبة ويستطيب الإنسان الاستمرار في إعمال الفكر إلى درجة الامتناع عن الالتزام النهائي بأية حقيقة. يحوّل قدرته على الشك إلى امتناع عن الاقتناع، ويصبح الامتناع عن تبني حقيقة معينة بمثابة الامتناع عن الالتزام الشخصي بالمساهمة في خلق القيم الروحية. بما أن الصدق يدخل في عداد المستحيل، تنتهي أية إمكانية لاجتراح بطولات. وتتعرض الحضارة للغزو من كل الأشياء غير الأصيلة، من طرف البدائل التي تصبح في خدمة المصالح الخاصة والموضة السائدة.

وفي مجتمع يفقد العلاقة الحية مع مثاله عن الحرية ليقبل أشكالا من الانحلال، لا يشعر الناس بما يتطلّبه مثال الحرية من جهد، فيكتفون فقط بما يجلبه لهم من منافع، في مجتمع مثل هذا يبدو النموذج الجرماني للإنسان مثل وعد صادق بالأصالة والتفرد. يفقد الإنسان وضعه السابق كإنسان يوجد قبالة عالم من الأفكار يمكنه أن يختار منها ويتخذ قراراته إزائها بكل حرية، يصبح مرتبطاً فقط بمجموعة محدودة من هذه الأفكار كما هو مرتبط بأواصر القرابة الدموية مع بني جلدته. يفقد قدرته على ممارسة اللعب مع الفكرة، لأنها خرجت من وجوده المحسوس، وأصبحت تسكن في جلده وفي دمه، وتحافظ بذلك على جديتها القاسية.

عندما يصبح الإنسان مغلولاً داخل جسده يفقد القدرة على الإفلات من ذاته. تصبح الحقيقة بالنسبة إليه لا موضوع تأمل أو فرجة مستقلة عن ذاته، بل مأساة فاعلها الأول هو الإنسان نفسه. هكذا يقول الإنسان "لا" أو "نعم" تحت تأثير وثقل وجوده الذي يتضمن معطيات لا يمكن التراجع عنها.

لكن ما الذي يفرضه عليه هذا الوضع الجديد؟ الإجابة واضحة: على قبول وتبنّي فكرة أن كل تقارب بين العقول غير مستند على رابطة الدم يصبح مشبوها. رغم ذلك، لا يريد هذا النوع الجديد من التفكير أن يتراجع عن الطابع البات للحقيقة، وأن يتوقف عن تقديم نفسه كحقيقة كونية. رغم أن هذه الحقيقة هي "حقيقتي" بأعمق معاني انتمائها إليّ وحدي، فإن عليها أن تخلق عالماً جديداً. لم يكتف زارادوشته بالتحوّل في ذاته، بل نزل من الجبل إلى العالم حاملاً إنجيلاً. كيف يمكن للعالمية والكونية أن تتوافق مع العنصرية؟ سوف نشهد هنا، وذلك نابع من المنطق والمنطلق الأول الذي استلهمته العنصرية، تغييراً جوهرياً لفكرة

الكونية. يجب عليها أن تفسح المجال لفكرة التوسّع، لأن توسّع قوة ما ينتج بنية مختلفة تماماً عن عملية انتشار فكرة.

إن الفكرة التي تنتشر تنفصل عن مبدعها، تصبح رغم الفرادة الأولى التي طبعها بها مؤلفها، جزءاً من الإرث المشترك. إنها مجهولة الانتماء والمصدر بطبيعتها، ويصبح كل من يقبلها سيّدها، تماماً مثل الذي اقترحها. لذا، فإن انتشار فكرة ما يخلق "مجتمعا من الأسياد" في إطار دينامية تعزز المساواة. فعندما نقنع شخصاً آخر بفكرتنا، نخلق منه نظيراً لنا، وكونية نظام ما في المجتمع الغربي تعني على الدوام كونية الحقيقة التي اجتمع عليها أعضاؤه.

على النقيض من ذلك، تتميز القوة السافرة بكونها تنتشر بطريقة مختلفة عما ذكرناه من طريقة انتشار الفكرة. فمن يستعمل القوة لا ينفصل عن قوته، وهي لا تسري في أوساط ضحاياها. إنها مرتبطة فقط بالشخص أو بالمجتمع الذي يمارسها، وهي تمكّنهم من التوسع بجعل الآخرين في خدمتهم. إن نظامها العام لا يقوم في هذه الحالة بتواز مع التوسع الأيديولوجي، بل عبر توسع يشكّل عالماً من الأسياد والعبيد. إن مفهوم نتشه عن إرادة القوة، الذي تستعمله وتمجّده ألمانيا الحديثة، ليس فقط مثالاً جديداً، بل هو أيضاً مثال أتى بتصوره الخاص عن الانتشار: الحرب والغزو.

نحن نلتقي هنا مع حقائق معروفة من قبل، غير أننا حاولنا ربطها مع مبدأ أساسي عام. وربما نكون نجحنا في توضيح أن العنصرية لا تناقض فقط أجزاء معينة من الأفكار المؤسّسة للثقافة المسيحية واللليبرالية، فما يتعرض للخطر بسبب العنصرية ليس فقط بعضا من مكونات الديمقراطية أو النظم البرلمانية أو الحكم الديكتاتوري أو السياسة الدينية، بل إنها تهدد في الصميم إنسانية الإنسان.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019